**أصول ومعنى الاستبداد.. أزمة الديمقراطية تؤدي إلى ولادته مجدداً**

* [د. زياد منصور](https://assoual.com/archives/author/ziadmansour)

* [05/09/2024](https://assoual.com/archives/45271)

 **د. زياد منصور**

**عانت البشرية كثيرًا من الاستبداد لفترة طويلة. وهناك أمثلة كثيرة تجلى فيها هذا الاستبداد، بدءًا من عصور زعماء القبائل البدائية، إلى الاستبداد الشرقي في العصور القديمة، والطغيان في العصور الكلاسيكية، ومن ثم الممالك الإقطاعية المبكرة، فالاستبداد الأوروبي، وكذا الملكيات المطلقة في روسيا، ولنتذكر معًا أصول الاستبداد في جمهورية فايمار بألمانيا افي أواخر العشرينيات إلخ. كل هذه ليست سوى مجرد صور على انتشار هذه الظاهرة التي لا تموت. فالاستبداد هو اليوم في أساس عالمنا الحديث، حيث انتقل إليه من الماضي في شكل قوالب تاريخية متجددة تتكيف مع يومنا هذا. ولا تظهر براعم هذا الاستبداد في مكان واحد فقط، بل يمكن أن تنبت بذوره في أي مكان.**

**بالمناسبة، فإن الديمقراطية في حد ذاتها ليست على الإطلاق مانعًا موثوقًا به ضد الاستبداد. بل على العكس من ذلك، فإن تكاليفها وعيوبها، وفي كثير من الأحيان الفوضى المتأصلة فيها والمناقشات العامة العفوية غير المنظمة. بل والبيئة السياسية التنافسية ذاتها، قد تحفز لحدوث تحولات في الوعي الجماعي تؤدي إلى تشوهه في اتجاه الاستبداد، مما يؤدي في النهاية إلى تحول، بل إلى انحطاط النظام السياسي القائم.**

**تساهم في ذلك أيضًا الصدمات الوطنية الكبرى مثل الهزيمة في الحرب أو تغيير النظام الاجتماعي. فالتقاليد التاريخية، والأزمات، والتجارب الديمقراطية الفاشلة قد تشكل عادة المهد الذي يولد فيه الاستبداد.**

**يشمل مفهوم الاستبداد عدة مكونات رئيسي، إذ يتميز الوعي الجماعي الاستبدادي عادة بغياب النقديّة في التعامل مع الواقع، والتكيف مع الوضع القائم، والميل إلى القوالب النمطية الجامدة، والتبجيل للسلطة القوية، وعدم التسامح مع الآراء الأخرى، وقمع التفكير المختلف، وفرض الإرادة الذاتية. كما ويتميز النظام السياسي الاستبدادي بانفصال السلطة عن الشعب، وهو لا يمكن تصوره بدون عبادة الزعيم-الفرد، أو بدون محاربة العدو الداخلي والخارجي، الذي يشكل صورته نقطة تركيز لهذا النظام، كما يتميز بالالتزام بالعسكريتاريا. وفي ظله، يحدث تأميم وسائل الإعلام، وتُنتَهَك حقوق وحريات المواطنين، وتصبح الأجهزة الأمنية وغيرها من الهيئات القمعية غالبًا دعامة رئيسية له. ويتميز المستبد بالعدوانية والعدائية في الدفاع عن أفكاره الخاصة، والغطرسة المفرطة، والحزم وتأكيد الذات من خلال إذلال الضعفاء، ومناهضة البرلمانية، والالتزام بمركزية السلطة وتركيزها في يد واحدة، وإهمال مبادئ السلطة. دورانها الدوري، والتسييس المنظم للجماهير، والرغبة في تحقيق ولاء المجتمع، والطبيعة غير القانونية للنشاط في كثير من الأحيان، وما إلى ذلك.**

**الديموقراطية مهد للاستبداد**

**إذا كان هناك نظام متعدد الأحزاب، فهو يأخذ الطابع الرسمي فقط. ويحتكر الحزب المهيمن بمهارة الفضاء السياسي بأكمله بطرق مختلفة ويقمع المعارضة، مما يمنع ظهور منافسين حقيقيين. وهذا يجعل من المستحيل تقريبًا استبدال زعيم استبدادي من خلال الإجراءات الانتخابية.**

**قد تكون نسبة المكونات المذكورة أعلاه مختلفة في النماذج الوطنية المختلفة للسلطوية. يختلف أيضًا أسلوب سلوك القادة الاستبداديين: توسعي مختل عقليًا في هتلر، شعبوي متصنع في موسوليني، مصاب بجنون العظمة في ستالين.**

**في الدولة الاستبدادية، ليس القائد وحده هو الاستبدادي. كبار البيروقراطيين، والمديرين التنفيذيين للشركات، ومديري الشركات هم أيضًا مستبدون ويقلدونه عن غير قصد. مثل الفيروس الخطير، تخترق الاستبداد جميع مجالات ومستويات الحياة اليومية، وتنتشر بشكل غير مرئي في الجامعات والمدارس، وتصيب المعلمين والمدرسين، ومن خلالهم الطلاب، وتشكل أجيالًا جديدة من أتباعها على مر السنين.**

**يتسم الحاكم المستبد بالعدوانية والنزعة العسكرية في الدفاع عن أفكاره الخاصة، وبالثقة الزائدة في النفس، والاندفاع والجموح، وإثبات الذات على حساب إذلال الضعفاء، ومعاداة الحياة البرلمانية، والتمسك بمركزية السلطة وتركيزها في يد واحدة، وتجاهل مبادئ التناوب الدوري للسلطة، وتسييس الجماهير بطريقة مُنظمة، والسعي إلى كسب ولاء المجتمع، وغالبًا ما يكون نشاطه ذا طابع غير قانوني، وغير ذلك.**

**إذا وُجد نظام التعدد الحزبي في ظل النظام الاستبدادي، فإنه يكون شكليًا فقط. حيث يحتكر الحزب المسيطر على الساحة السياسية بمهارة كافة المجالات، وتقمع المعارضة، وتمنع بروز منافسين حقيقيين. وبفضل ذلك، يصبح تغيير القائد المستبد عبر الإجراءات الانتخابية شبه مستحيل.**

**قد تكون نسبة المكونات المذكورة أعلاه مختلفة في النماذج الوطنية المختلفة للسلطوية الاستبدادية. يختلف أيضًا أسلوب سلوك القادة الاستبداديين: قط يكون توسعيًّا وصاحبه مختل عقليًا كهتلر، وشعبوي متصنع عند موسوليني، ومصاب بجنون العظمة في ستالين.**

**في الدولة الاستبدادية، لا يقتصر الاستبداد على القائد فقط. بل يمتد إلى البيروقراطيين الكبار الذين يقلدونه عن غير قصد، وكذلك إلى رؤساء الشركات ومديري المؤسسات. يتسلل الاستبداد كالفيروس الخطير، في جميع مجالات ومستويات الحياة اليومية، وينتشر خفية في الجامعات والمدارس، مؤثرًا على الأساتذة والمعلمين، وبالتالي على الطلاب، ليشكل عبر السنوات أجيالاً جديدة من مؤيديه.**

**الاستبداد العالمي المعاصر**

**يرتبط الميل الواضح للجماهير نحو الاستبداد وظهور الأنظمة الاستبدادية بشكل رئيسي بعصر الراديكالية الذي أعقب نهاية الحرب العالمية الأولى. فلقد اجتاحت موجة تشكيل الأنظمة الاستبدادية أوروبا آنذاك. من الأمثلة البارزة على ذلك: صعود موسوليني إلى السلطة في إيطاليا (1922)، وصعود سالازار في البرتغال (1929)، وبريمو دي ريفيرا وفرانكو في إسبانيا (1923 و1939)، وهورتي في المجر (1920)، وزوغو في ألبانيا (1924)، وبيلسودسكي في بولندا (1926)، وسميتوناس في ليتوانيا (1926)، وهتلر في ألمانيا (1933)، ودولفوس في النمسا (1933)، وبيتس ولايدونير في إستونيا (1934)، وأولمانيس في لاتفيا (1934)، وميتاكساس في اليونان (1936)، وتأسيس ديكتاتورية الملك كارول الثاني الاستبدادية في رومانيا (1938)، وصعود البلاشفة إلى السلطة في روسيا (1917) وتشكيل النظام البيروقراطي الاستبدادي في السنوات الأولى من الحكم السوفيتي، وفي السنوات اللاحقة تأسيس نظام ستالين الاستبدادي الذي تحول مع مرور الوقت إلى نظام شمولي. كما شملت هذه الأمثلة أيضًا قادة دول أوروبا الوسطى وجنوب شرق أوروبا الذين كانوا جزءًا من الكتلة السوفيتية خلال سنوات الحرب الباردة، ونظام “الضباط السود” في اليونان (1967-1974).. هذه أمثلة بارزة على الأنظمة الاستبدادية التي حكمت أوروبا في القرن العشرين. ويمتاز أيضًا مؤسس الجمهورية الخامسة في فرنسا الجنرال ديغول بميله إلى الاستبداد، حيث أقام نظام حكم شخصي في البلاد.**

**في القرن الحادي والعشرين، ساهم كل من رئيس وزراء إيطاليا بيرلسكوني وحاملة لواء التقليد الاستبدادي الفرنسي مارين لوبان، وجورجا مِلوني في إيطاليا، على غيرهم الكثير في العالم العربي، في العراق وسوريا، والنظم التيوقراطية في الخليج في إثراء تاريخ الاستبداد العالمي.**

**لم تستطع دول الشرق أيضًا تجنب متلازمة الاستبداد. فعبادة القادة المستبدين لا تزال حتى اليوم الأكثر شيوعًا في آسيا. من الأمثلة البارزة: الإمبراطور هيروهيتو في اليابان (1926-1989)، ولي كوان يو في سنغافورة (1959-1990)، ورئيس جمهورية الصين الشعبية ماو تسي تونغ (1949-1976) والرئيس الحالي شي جين بينغ (منذ 2012)، وأردوغان في تركيا (منذ 2014)، ورؤساء الفلبين ماركوس (1972-1985) ودوتيرتي (2016-2022)، ورئيس وزراء الهند مودي (منذ 2014).**

**نشأ في كوريا الشمالية نموذج خاص من الاستبداد الآسيوي، حيث تسيطر السلالة الشيوعية لعائلة كيم (كيم إيل سونغ، كيم جونغ إيل، كيم جونغ أون) على السلطة بلا تغيير منذ 76 عامًا (منذ عام 1948).**

**تُعد الديكتاتوريات العسكرية لكل من بيرون في الأرجنتين، وبينوشيه في تشيلي، والنظام الثيوقراطي في إيران، وحكم طالبان (الذي يُعد منظمة متطرفة) في أفغانستان، أشكالًا أخرى من الأنظمة الاستبدادية.**

**توطدت الأنظمة السياسية الاستبدادية أيضًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في الجمهوريات السوفيتية السابقة، واليوم في دول آسيا الوسطى: أوزبكستان، وتركمانستان، وطاجيكستان، وقيرغيزستان، وكذلك في كازاخستان وروسيا البيضاء (بيلاروسيا). وتعد أذربيجان الحالية مثالًا آخر على السلالة الاستبدادية الحاكمة. اليوم، يوجد حوالي 60 نظامًا استبداديًا في العالم (أي ما يقرب من ثلث جميع دول الكوكب).**

**الاستبداد الأمريكي أم الديموقراطية :**

**لقد لوحظ منذ فترة طويلة تعرض جزء من المجتمع الأمريكي للاستبداد، الأمر الذي كان يسبب دائما الحذر، وأحيانا المخاوف الخطيرة. لقد تم تشكيلها وتتطور بشكل أساسي في إطار التقليد المحافظ اليميني الموجود في الولايات المتحدة.**

**ولعل أبرز حاملي الأفكار الاستبدادية في الخمسينيات كان السيناتور الجمهوري مكارثي من ولاية ويسكونسن، الذي كان صاحب آراء يمينية متطرفة وحتى رجعية. بعد أن أصبح رئيسًا للجنة الفرعية الدائمة للتحقيقات بمجلس الشيوخ الأمريكي في عام 1953، قام بتنظيم جلسات استماع عامة مغطاة على نطاق واسع، وكان المشاركون فيها بمثابة “محققين” وحاولوا، من خلال ترويع المجتمع الأمريكي، إثبات أن الشيوعيين الذين اخترقوا جميع مجالات حكومة الولايات المتحدة يمثلون خطرًا مميتًا على البلاد. من خلال جهوده، تم تشكيل جو من الهستيريا المجنونة المناهضة للشيوعية في البلاد وتم إنشاء شبكة كاملة من مؤيدي الاستبداد المحافظ.**

**صحيح أن هذا التطرف اليميني المخيف الذي تجذر، أعاق المدافعين عنه. إن الوعي الراديكالي بشكل عام ليس من سمات غالبية الأمريكيين، الذين يتناسب علم نفسهم الجماعي تقليديًا مع إطار الشكل المعتدل، وبالتالي لم يكونوا عرضة لهذا النوع من التطرف.**

**كان أبرز مؤيدي الاستبداد في الستينيات هو عضو مجلس الشيوخ المحافظ للغاية عن ولاية أريزونا غولدووتر، الذي أصبح مرشح الحزب الجمهوري في الانتخابات الرئاسية عام 1964. فهو، مثل مكارثي، وجه نفوذه وتطرفه نحو مكافحة الخطر “الأحمر”، وبالتالي أدخل الوعي الاستبدادي اليميني الراديكالي في رؤوس الملايين من الأميركيين. لكنه لم يتمكن قط من تحقيق النجاح والفوز بالبيت الأبيض، رغم أنه نشر فيروس الاستبداد المحافظ في المجتمع الأمريكي.**

**أما الممثل السينمائي السابق رونالد ريغان، الذي وحد الحركة المحافظة برمتها وأصبح بمثابة رايتها في أوائل الثمانينيات، على الرغم من أنه كان مشاركا في حركة غولدووتر في الستينيات، لكنه ابتعد عن تطرفه وراديكاليته على مر السنين. تشكلت شخصيته في عصر فرانكلين روزفلت، وكان في حالة تطور مستمر، حيث غيّر مواقفه السياسية وتفضيلاته الحزبية عدة مرات، متغلبًا بذلك على الراديكالية والتخلص من التطرف بمختلف أشكاله. مع مرور الزمن، تلاشت ميوله الاستبدادية التي كانت بارزة في الفترة المبكرة، وتحوّل ريغان إلى محافظ معتدل، ما مكنه من توحيد تيارات مختلفة من المحافظين.  وبمرور الوقت، تخلصت الحركة المحافظة الأمريكية أيضًا من التطرف العدواني، الذي ظهر بحلول نهاية السبعينيات في شكل أكثر عقلانية. وقد منحه هذا مظهرًا جذابًا، مما سمح للجمهوري ريغان بالفوز في الانتخابات الرئاسية عام 1980 وشغل مقعد في المكتب البيضاوي. كان الوعي الاستبدادي أيضًا سمة للسيناتور الجمهوري المحافظ من ولاية أريزونا، جون ماكين، المعروف بآرائه الراديكالية.**

**إلى حد ما، كان الاستبداد (ولكن من النوع اليساري) سمة تميزت بها شخصية الرئيس روزفلت، حيث اتهمه معارضوه، بشكل رئيسي بسبب إصلاحات “الصفقة الجديدة”، بمغازلة خطيرة مع كل من الشيوعية والفاشية في الوقت نفسه. وردًا على هذه الاتهامات غير المبررة، والتي لا شك أنه كان ديمقراطيًا، أجاب روزفلت بأنه في قناعاته أقرب “قليلًا إلى يسار الوسط”.**

**مستبدون في السلطة**

**غطت موجة قوية جديدة من الاستبداد البلاد في مطلع العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين. يرتبط الاستبداد الحديث في الولايات المتحدة في المقام الأول بشخصية دونالد ترامب – رجل أعمال واثق من نفسه، ورجل استعراض فاضح، وفي النهاية سياسي مغامر مستعد للمضي قدمًا لتحقيق أهدافه الخاصة، باستخدام أي وسيلة لقتال خصومه.**

**تبين أن صعود مثل هذا الشخص إلى السلطة، وكذلك رئاسة ترامب نفسها (2017-2021)، كان ممكنًا بسبب الانتشار الواسع النطاق للأفكار الاستبدادية في منتصف الربع الأول من القرن الحادي والعشرين في القطاعات المحافظة من المجتمع الأمريكي. وقد استفز وصول باراك أوباما إلى السلطة في عام 2009 بسياساته الداخلية اليسارية المتطرفة تحولات مماثلة في الوعي الجماهيري وسلوك الأميركيين. إن التحول إلى اليسار يولد دائمًا استجابة نحو اليمين. والعكس صحيح.**

**مثل هذه الانحرافات الجذرية واسعة النطاق في الوعي العام، والتي تتجلى اليوم بشكل رئيسي في البيئة المحافظة في الولايات المتحدة، لم يتم ملاحظتها من قبل. أو بالأحرى، لم تتبدى مظاهرها علنا، بل كانت موجودة بشكل رئيسي ولكن بشكل خفي.**

**مثل هذا الاستعداد الضمني للأفكار الاستبدادية، والميل النفسي غير المرئي للجماهير نحو الاستبداد، يمكن أن يوجد دون أن يلاحظه أحد في المجتمعات التي تعيش في حالة سبات لفترة طويلة. وفقط الزناد الذي يظهر في الوقت المناسب هو القادر على فتحه وتوجيه رد الفعل السلوكي الخامل سابقًا للجماهير في اتجاه استبدادي.**

**وبالتالي، فإن العنصرية والمشاعر المناهضة للهجرة الموجودة في الولايات المتحدة، ورفض الغرباء بمختلف أنواعهم وغيرها من المظاهر السلبية للاستبداد الجماعي، التي اتخذت شكلاً رسميًا في المنظمات والحركات، مقيدة بطريقة أو بأخرى بالمعايير القانونية. للدولة الأمريكية. ولكن غالباً ما تكون آليات مثل هذا الاحتواء عاجزة في مواجهة الزعماء المتطرفين الحازمين الذين يسعون إلى استخدامها لتحقيق أغراضهم السياسية الخاصة.**

**ما الذي غذى المشاعر الاستبدادية لدى الأميركيين المعاصرين؟ تزايد تدفقات الهجرة، وخاصة الهجرة غير الشرعية غير الخاضعة للرقابة والجرائم ذات الصلة، وانخفاض نسبة البيض ونمو الأمريكيين غير البيض، وتدهور وضع العمال البيض وأسرهم، والتهديد بالإرهاب، وتآكل الأخلاق التقليدية. هذه القائمة الكاملة من التهديدات والتحديات الجديدة في القرن الحادي والعشرين زادت من حدة المخاوف وشكلت آراء سلطوية لدى رجل الشارع الأمريكي، وحوّل انتباهه إلى البحث عن مدافع – قائد قوي قادر على مقاومتها والعودة إلى الماضي. وهذا ما وجدوه في ترامب.**

**أظهرت ظاهرة التطرف المجتمعي الأميركي شيئًا لم يعلق الأمريكيون أنفسهم عليه أهمية كبيرة في السابق: فقد تبين أن شعبية الاستبداد بين الجماهير كانت مرتفعة بشكل غير متوقع لدرجة أنها تسببت في بعض الأحيان في الشعور بالمفاجأة وحتى الحيرة. وكانت الاتجاهات الجديدة مصحوبة بالتطرف المتزايد في الحزبين الأميركيين الحاكمين الديموقراطي والجمهوري، حيث بدأ أجنحتهما المعتدلة تفقد قوتها بسرعة وتتجه إلى الظل، و”الحزبين القديمين”، كما يسميهما الأمريكيون أنفسهم، في مطلع العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، تحولا أخيرًا إلى مهد للاستبداد. أصبح التطرف الاستبدادي يحظى بشعبية خاصة بين العنصريين البيض والإنجيليين اليمينيين الذين لديهم أفكار أبوية حول إعادة أمريكا القديمة.**

**في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، ظهرت في الولايات المتحدة حركات ومنظمات يمينية متطرفة مثل (“حركة الشاي”، و”الأولاد الفخورون”، و”حراس القسم”، وغيرها….)، التي لعبت دور حامل لواء الاستبداد، وعملت بقوة على غرس مبادئ الاستبداد في صفوف الجماهير المحافظة. وبالتزامن مع الجماعات المتطرفة التي كانت موجودة بالفعل (والتي يزيد عددها في الولايات المتحدة عن 500 جماعة)، دعمت هذه الحركات بروح ملحوظة وإصرار كبير الروح اليمينية المحافظة في البلاد، مما أشعل عمداً المشاعر اليمينية المتطرفة قبيل الانتخابات.**

**يجب أن نأخذ في الاعتبار أن ميل الجماهير نحو المحافظة اليمينية المتطرفة يُنتج لديهم حتمًا قيمًا استبدادية وإيمانًا بالقادة الأقوياء. ولربما الجمهوري دونالد ترامب – الرئيس الخامس والأربعون للولايات المتحدة – يمثل رمزًا لهؤلاء الأمريكيين، والذين يسعون لإعادة تحقيق نجاحه في عام 2024. إذا ما نظرنا إلى عدد الناخبين الذين صوتوا لصالح ترامب ونظرائه في عام 2016، فإن عدد الأمريكيين المصابين بهذا الفيروس بلغ نحو 70 مليونًا.**

**إن الاعتقاد الراسخ بأن المهد الديمقراطي هو ضمانة موثوقة ضد أي تفضيلات استبدادية جماعية ولن يسمح أبدًا بتحول المجتمع الديمقراطي والليبرالي إلى نظام استبدادي قد انهار مع ظهور ديكتاتورية سلطوية في كلا الحزبين الحاكمين على الساحة السياسية.**

**ولادة جديدة للديمقراطية**

**إن عجز النخبة الحاكمة عن الحكم من خلال المؤسسات الديمقراطية، واستنفاد فرص التأثير على المعارضين عن طريق الإقناع، والتأثير عليهم وقوة المثال، يشير إلى أزمة سلطة ويؤدي حتما (غالبًا عبر الفوضى) إلى الاستبداد. يُنظر إلى الاستبداد كوسيلة ضرورية لتركيز الصلاحيات في يد النخبة الحاكمة وكأداة وحيدة ممكنة لتجاوز المشكلات المتراكمة.**

**هكذا يحدث التحول الداخلي للديمقراطية إلى استبداد. خلال هذا التحول، تفقد الديمقراطية مهمتها الرئيسية – التنسيق بين المصالح الجماعية والبحث عن التوافق الاجتماعي بالوسائل السلمية (التي يمكن تحقيقها بطرق أخرى، مثل الالتفاف حول قائد معترف به).**

**ومع ذلك، يحتفظ النظام المشوه نتيجة لهذا التحول ببعض الحريات وبعض المؤسسات الديمقراطية كواجهة: البرلمان، مؤسسة الانتخابات، الأحزاب السياسية، والتي تتحور بسرعة، فتفقد غايتها الأصلية. بالطبع، من غير المرجح أن يهدد هذا التحول الولايات المتحدة اليوم. هناك أمل في أن الدولة الأمريكية والمجتمع الأمريكي سيتمكنان من “هضم” أي مرشح سواء أكان دونالد ترامي أم كاميلا هاريس، وكما في الماضي سيتمكنان من تجاوز موجة الاستبداد اليميني المحافظ أو الليبرالي المشوه التي واجهوها في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.**

**أما في الأماكن التي ترسخ فيها الاستبداد وأصبح تقليدًا سياسيًا، وفي الأماكن التي استطاع فيها التكيف وتشكيل مجتمع متوافق مع السلطة، فمن غير المرجح توقع تغييرات عميقة وسريعة. فالأنظمة الاستبدادية تأتي لتبقى. لكنها ليست أنظمة دائمة.**